تاريخ بناء القرويين

؟306 ؟263 ؟245

للدكتور عبد الهادى التازى

إن كل أولئك الذين كتب لهم أن يزاولوا الدراسات التاريخية بصفة عامة وتاريخ المغرب بصفة خاصة يذكرون جيداً ان ابن أبي زرع فى كتابه القرطاس نقلا عن أبى القاسم ابن جنون فى تاريخه لمدينة فاس ، وكذا سائر الذين حذوا حذوه من أمثال الجزنائى فى زهرة الآس ، وابن خلدون فى تاريخه : العبر ، وابن القاضى فى جذوة الاقتباس وغير هؤلاء يجمعون على أن مسجد القرويين بمدينة فاس شرع فى حفر أساسه والأخذ فى أمر بنائه أول رمضان من سنة ٢٤٥ (٣٠ نوفمبر ٨٥٩) بمطالعة العاهل الادريسى يحيى الأول ، وأن أم البنين فاطمة الفهرية هى التى تطوعت ببنائه وظلت صائمة محتسبة الى أن انتهت أعمال البناء وصلت فى المسجد شكراً لله » ، وهذه حقيقة تاريخية لا يسمح الباحث لنفسه بالاستسلام للشك فيها والتردد أمامها سيما وهى ترجع لوقت مبكر من تاريخ المغرب أعنى وقت بنى مرين أوائل القرن الثامن الهجرى ، بيد أننا نجد أنفسنا اليوم أمام وثيقة معاصرة للادارسة ، أنها لوحة منقوشة عثر عليها — عند أعمال الترميم — فى البلاط الأوسط فوق قوس المحراب القديم الذى كان للقرويين قبل قيام المرابطين بتوسعة المسجد ، لقد اكتشفت مدفونة تحت الجبس وقد كتب عليها — فى حملة ماكب - بخط كوفى أفريقى عتيق : « ... بنى هذا المسجد فى شهر ذى القعدة من سنة ثلاثة وستين ومائتى سنة مما أمر به الامام أعزه الله داود بن ادريس أبقاه الله ... ونصره نصراً عزيزاً » .

وما دمنا فى استعراض الآراء حول تاريخ القرويين لا بد أن نعرض لرأى ثالث نقله الدكتور أوسكار لانز(١) ، فلقد ساق ترجمة لنقش قيل أنه عثر

(١) Oskar Lenz : Voyage au Maroc Paris 1886 vol 2, 01

عليه فوق « صفيحة فضية » مغروزة فى أحد جدران المسجد وتوجد ضمن هذا النص العبارة التالية : « .. بنى يوم الخميس من سنة ٣٠٦ أول شهر ربيع النبوى ..» أى فى أيام ولاية يحيى الرابع ..

وحتى نرجع الى حديث فاطمة وداود نشير الى أن رواية الدكتور لانز لا نعيرها أى وزن من الناحية التاريخية لأنها خالية من كل سند ملموس سيما مع ما حكاه عن الطالب ادريس الذى زوده بهذه الوثيقة والذى لم يكتمه أنه وجد صعوبة فى الوصول الى بقية النقش ، الأمر الذى يقرب الى « أساطير » السياح أكثر مما يخدم الحقيقة التاريخية ، هذا مع العلم بأن أول ربيع الأول يوافق — حسابياً — يوم الثلاثاء وليس يوم الخميس ... وبعد فلنرجع الى ابن أبى زرع ، واللوحة المنبعثة .

ولكن قبل أن نفتح الموضوع يجب أن نتعرف فى كلمة وجيزة عن الامام داود بن ادريس تاركا التفصيل للبحث الذى كنت كتبته خصيصا عن هذه الشخصية (١) .

بالرغم من أن جميع المؤرخين يخلوا على داود بأكثر من كلمة واحدة تتلخص فى أنه « لما توفى ادريس الثانى قام بالأمر بعده ابنه محمد وأن هذا الأخير قسم بلاد المغرب بين كبار اخوته ترضية لهم وكان من بينهم داود الذى استأثر باقليم تازة وقد رددت سائر المصادر « الفتنة » التى نشبت بين بنى ادريس على أثر هذه « الترضية » لكنها لم تعد بحال لذكر اسم داود ، وقد كاد هذا الأمر يعد فى عداد الضائعين لولا عناصر ثلاثة :

(أولا) اليعقوبى (٢) الذى يذكر أن داود ابن ادريس كان واليا على عدوة الأندلس وأنه كان « يدافع » يحيى صاحب عدوة القرويين المعروفة بالمدينة العظمى .

---

(١) التازى ، مجلة « دعوة الحق » العدد السابع ، السنة الثالثة ابريل ١٩٦٠ — مجلة « مجمع اللغة العربية » بدمشق المجلد ٣٦ جزء ٢ ص ٢١٢

(٢) اليعقوبى ، أخبار البلدان ، طبعة ليدن ١٨٩٠ — ص ١٢٧

Blachère, Hespéris T, 18 — 137 pages 41 — 42 — 43

(ثانياً) الدرهم الموجود بالمكتبة الوطنية بباريس الذى يحمل اسم الامام داود بن ادريس (١) .

(ثالثاً) هذه اللوحة الأثرية التى يحتفظ بها الآن فى المركز الرئيسى لمصلحة الآثار بالمملكة المغربية وبعد هذا نرجع الى الحديث .

هل القرويين من تأسيس فاطمة ؟ أو من عمل داود ؟

لقد كنت كتبت بمجرد وقوفى على اللوحة كلمة فى الموضوع نشرت فى مختلف المجلات العلمية سواء بالمغرب (٢) ، أو القاهرة (٣) ، أو تونس (٤) وأسبانيا (٥) ، وكنت قصدت كما صرحت بذلك أن أثير انتباه الناس عليهم يساعدون على اضفاء الضوء على هذه الحقائق ، ومن سوء الحظ أننى الى الآن لم أقف على « رد الفعل » من طرف الذين يهمهم أمر التاريخ حاشا بعض « الفروض » التى تلقيتها من بعض الأساتذة الاجلاء الذين حرصوا على أن يجعلوا نقل القرطاس فى نجوة من الشبهة والريب .

ففى الناس من أوصى بنبذ أمر هذه اللوحة لأنها فى نظره تناهض « تواتراً » متوارثاً عبر الأجيال ، وفيهم من رجح أن تكون اللوحة قد نقلت من مكان آخر وغرزت هنا.. وأن ذلك تم على عهد الوطاسيين فى الفترة القصيرة التى رجع فيها النفوذ للشرفاء الادارسة بواسطة محمد بن على الجوطى(٦) .

وفى الناس طائفة ثالثة يصممون على أن يأخذوا بما ورد فى مدلول اللوحة نظراً أولا لكونها « وثيقة معاصرة » ، وثانياً لما أثر من هفوات عن

---

(١) La voix, catalogues des Monnaies - Musulmanes de la Bibliothèque Nationale p. 69 no 921

(٢) التازى – مجلة التربية الوطنية ، العدد الرابع سنة ١٩٦٠ ص ١٠–٢٠

(٣) مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، العدد الثامن ١٩٥٩ ص ٢٤٤–٢٤٥

(٤) التازى – مجلة الفكر – السنة الخامسة عدد ٩ مارس ١٩٦٠

(٥) التازى مجلة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد – المجلد السادس ١٩٥٨ ص٢٧٧–٢٧٨

(٦) Deverdun, mélanges d' histoire et d'Archeologie T. 11 page 72

عن القرطاس ، وثالثا لكون بعض الرحالة والمؤرخين القدامى من أمثال اليعقوبى والبكرى وابن عذارى تحدثوا عن مدينة فاس بمسجديها العتيقين لكنهم لم يعرجوا على تأسيس القرويين على النحو الذى عرف فى القرطاس .

فماذا تكون الحقيقة ؟

أما « التوصية » بنبذ اللوحة فأمر سلبى لا يسمح به المؤرخ النزيه ، وأما عن أمر نقل اللوحة وخاصة أيام الوطاسيين فأنه يبعده عندى أن التاريخ ظل صامتا صمتا مطلقا عن مؤسسات داود بن ادريس فى مناطق نفوذه فلا يمكن أن ندعى أنه أسس هناك « مسجداً » وأن « اللوحة » التى كانت على ذلك المسجد هى التى نقلت . لكن الأبعد هو القول بأن عملية النقل تمت على عهد الوطاسيين مع انها وجدت تحت الحبس الذى ضرب — منذ نهاية دولة المرابطين — على سائر جهات البلاط الأوسط ، ولم يتحدث التاريخ أبدا عن ازاحة « التبليط » (١) الذى قام به فقهاء فاس أو المسؤولون فى الدولة الموحدية ، لذا فامام قوة هذه الوثيقة الناطقة واعتبارا لما نقل عن اليعقوبى وعرف من أمر السكة الداودية واحتراما لما نقل عن أبى القاسم بن جنون (٢) وابى محمد عبد الملك بن محمود الوراق (٣) مما تردد صداه فى الأنيس المطرب والنكس فى زهرة الآس والعبر والحذوة ، ونظراً لأننا لم نعثر لحد الآن على نص تاريخى آخر يعزو بناء الامام داود لجامع القرويين ، ونظراً لكون النقش المشار اليه لم ينص بصفة واضحة على لفظ القرويين ، أقول مراعاة لكل ذلك نجد أنفسنا بين احتمالين :

---

(١) مجلة الآداب — الاسكندرية ، العدد ١٤ سنة ١٩٦٠ ص ٦٠ — ٨٨ — المؤتمر الثالث للآثار العربية ، نشر بجامعة القرويين صفحة ٤٤٥ — ٤٦٥ . التربية الوطنية بفاس — سنة ١٩٦٠ ص ٤٤ ، التازى : جامعة القرويين فى أحد عشر قرنا ، طبعة المحمدية ص ٨

(٢) رسالة فى ذكر من أسس مدينة فاس (مخطوطة) مجهولة المؤلف بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية تحت رقم ٩٧٢٢ ج)

(٣) مخطوط فى تاريخ الادارسة من تونيهاجن مصور بمعهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية .

فأما أن يكون ابتداء البناء كان فى رمضان ٢٤٥ فى أيام يحيى ولكنه استمر الى سنه ٢٦٣ أيام داود بن ادريس وتكون فاطمة استغرقت فى صومها كل هذه المدة، ويعزز هذا الرأى أولا ما استهدفت له البلاد من حالة الجفاف فى هذه الأثناء ، وثانياً ما تعهدت به فاطمة والتزمت من استخراج كل مواد البناء من نفس البقعة تحريا ، وثالثا أن المصادر التاريخية انما تحدثت عن ابتداء البناء ولم تتحدث عن انتهائه ، فكل هذا مما يبرر استغراق كل هذه المدة .

وأما أن يكون البناء تم فى نفس السنة نظراً لكون الجامع — ومساحته لاتصل الى ألف متر مربع — لايمكن التهاون فى أمر بنائه طيلة ثمانية عشر عاما .. ويفسر وجود داود بن ادريس هنا بأنه فى الفترة التى كان « يدافع » فيه يحيى تمكن فى بعض الظروف من الاستيلاء على عدوة القرويين وتخليداً لهذا الفوز الذى حصل عليه فى عدوة القرويين ورغبة فى أن تعرف الأجيال القادمة أنه « كان هنا » فقد شاء أن ينقش اسمه كنصب تذكارى فى هذه الجهة. ولما كان الملوك ، والرؤساء يختارون ابرز مكان واشهره لتخليد أسمائهم وكان أفضل مكان فى المسجد واطهره هو المحراب فقد تم ضرب هذه « الأبرزة » عليه حتى تظل أمام المتعبدين والقاصدين . بقى أن يتساءل عن اختفاء اسم فاطمة من اللوحة مع أن النصوص المذكورة تتضافر على أنها المؤسسة ؟

اننا نعلم أن التقاليد لا تلح فى ذكر اسماء النساء على المبانى سيما مع ما أثر من أن الشعوب قد تقوم بالمشاريع وترجع الى الملوك تبنيها تقديراً لهم وتكريماً لمقامهم .

وبعد ... فهل ستكون هذه كلمتنا الأخيرة حول تاريخ بناء القرويين ؟